طبيب
بقلم : محمود نيمور

عدت الى داري بعد منتصف الليل بقليل ، وتوحيت على الفور مكتبي ، وقد استقر في المرام على أن اتم الفصل الختامي من قصتي الطويلة « زهيرة » ، بعد أن ظل دون اتمام وقتا ليس بالقصير .

لزام أن افرغ من القصة مهما يكن من أمر ، فلم يعد للتسويف موضع .

و « زهيرة » هذه في القصة التي تحمل اسمها : عانية لعوب ، تأسر قلوب الرجال ، وتتحكم فيما لهم من مصاير وأقدار ، وانها لتتميز بحادية انثوية فتاكة ، وان حياتها لسلسلة من المغامرات موصولة الحلقات في دنيا اللهو والمجانسة والهوى .

كانت شخصيتها مثار اعجاب من حولها من الناس في أحداث القصة وطواياها ، ووجدتني مشدودا بشخصيتها تلك التي سويتها لها على ما بها من غرابة وتعقد ، اذ كانت تجمع بين المتناقضات ، فهي مزاج طريف من التفحة الناعمة والأنانية الوضيعة ، من الرحمة الدافقة والقسوة العنيفة ، من الحب الفياض والكراهية المستعرة ، من الأريحية السخية المغدقة والابتزاز للمال في شراهة ممقوتة .

والآن ، وقد قصت « زهيرة » حياتها لهيا للاعاصير الهوج ، حان لها ان تستحمي عن العيون ، وتترك مكانها على مسرح الوجود . فلقد أدت دورها كاملا غير منقوص ، وحق عليها أن تنتهي ايامها ، ذلك ما تحتمه ملابسات حياتها ؛ وهو حتام طبيعي يساير منطق الأحداث في غير تكلف ولا افتعال ، على ما يثيره في نفسي من شعور الأسى الدفين .

وبسطت الأوراق بين يدي ، واستغرقت في تفكير ، أقلب الأمر على شتى الوجوه . وأخيرا أشرعت القلم لاكتب ، واذا انا بغتة أحس شيئا يمس كتفي ، فالتفت استبينه .. لا شيء .. الصمت والهدوء يضربان دوني نطاقا .

ولم تمض لحظات ، حتى تصيدت اذني صوتا أشعر فيه خفق الخوافق ، بل ما أشبهه بوسوسة النسيم .

ان الصوت يحوم حولي .

ثم تراءى لي دخان ابيض ، لم يلبث ان تشكل في صورة آدمية ، وكادت تنطلق مني شهقة ، وقمت فمي وأنا احدق في الطيف ... اتراني أمام روح تزورني من عالم الآخر ؟

وتدانى الطيف مني على مهل ، وسمعته يتكلم هامسا :

« الا تعرفني ؟ »

هذه ملامح ليست غريبة عني ، ونبرة الصوت مألوفة لي .

ـ يخيل الي اني عرفتك ، ولكن .. اين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

وانبعثت من الطيف ضحكة ناعمة ، طالما تحاورت اصداؤها في اذني من قبل .

وسمعتها تقول :

ـ نحن نلتقي في هذه الحجرة كل ليلة ...

قمرت في أوصالي رعشة ، وهمهمت :

ـ أممكن هذا ؟

ـ كل الامكان يا صاح ...

ـ عجيب ... ولكن اليس لي ان اعرف سمت هذه الرورة ؟

فصلت هي بعض وقت في صمت ، لا تختلج لها جارحة ، ثم قالت :

لماذا حكمت على بالموت ؟

ـ أنا ؟ كيف ؟

ـ الأوراق المبسوطة أمامك تشهد بصدق دعواي .

والعيني احملق في الأوراق داهلا ، ويدي تمتد اليها تعبث بها ، وشعرت بيد تمس منكبي ، فكانما لامستني نار كهربي ، واذا هي تقول :

اريد وقف الحكم الذي اصدرته على ... لا أريد ان أموت في هذه البلدة المكرة ...

فاحبت وعيناي مشدودتان الى الأوراق :

ليس ثمة مفر من موتك ... التطور الطبيعي لحياتك يسلمك لابد الى هذه النهاية .. الى الانتحار !

فصاحت في حدة :

لا ، لن انتحر ، لن اموت ، وستلعن انت نفسك هذا الحكم الظلوم !

ـ ليس في الأمر حيلة .

ـ قلت لك لابد أن تلغي حكم الموت .

ـ وهل الأمر بيدي ؟

فتصاحكت تقول :

في يد من اذن ؟

ـ في يد الأقدار !

ـ انت الذي تسوى قدري ، وتخط مصيري .

فرفعت اليها بصري ، أقول مغمغما :

انا لا أسوى قدرا ولا اخط مصيرا ... هيهات .. هيهات !

ـ انت خالقي ، وما أنا الا وليدة الهامك .

ـ لقد أطلقتك حرة ترسمين منهج حياتك بنفسك ، ولا أحد غيرك مسئول عن تصرفاتك .

ورايتها تطيف بي صامتة ، ثم همست :

اذن فلا أقل من ان تمد الى يد العون ...

ـ حقا ... لو استطعت ؟

ـ في مستطاعك ان تفعل ...

ـ كيف ؟

فاحنت بحيالها يتمسح بوجهي ، ولكانما هناك نسمة عبقة بضوع منها اريج الزهر ، اريج يعاد يبعث النشوة في القلب .

ومضت تبدي لي معاتبتها في اعراء واغواء .. فوجدتني أقول :

احتشمي يا « زهيرة » .

ـ ماذا تنكر مما اصنع ؟ ألست في داري ؟ ألست في الوطن الذي شهد مولدي ؟

ومثلت أمامي في وضعة مثيرة .

ـ جهد ضائع تبذلينه ... أؤكد لك ... لا تحسبي أنك قادرة على اخضاعي بمثل هذه الوسائل التي تجدها الغواني ... لست واحدا من مشاغفك المولهين بك !

فرمت على محياها الرقيق ابتسامة ، وقالت في طراوة انوثة

اترعم انك غير مسئول عني ؟

ـ انا ؟ . . . انا اتولاه بك ؟

عشرت بكفها المواج يداعب خدي مهددا .

ـ انت في طليعة الواقفين في اسري . . لن تفلت من سحر فتنتي . . لن يجسر احد على ان يعصيني !

ـ يا للمغرورة المتامرة !

ـ هكذا سوبيني . . .

وما لبثت هي ان تمددت على المتكا في استرخاء .

ونهضت انا ادرع الحجرة مضطرب الخطا ، ويداي معقودتان على صدري . . اغدو واروح . . واروح واغدو . . ثم اخذت مكاني من المكتب متهاونا على المقعد .

ـ هل وفقت الى وسيلة انجو بها من الموت ؟

ـ لا . . . وا اسفا !

وتقلصت غرة صمت جبانة .

ونفثت سمعت نشيجا مؤثرا .

واذا انا في كتب من المتكا اعالج ان اسري عنها . .

ونهضت تلملم من شعثها ، وتصلح من مظهرها .

ـ الى اين ؟

ـ الى المكان الذي هيأته لي هناك . . المضمدة . . وزجاجة الشراب . . والمدى .

وبدت مني صيحة ذعر .

ـ لا . . لا . . بحق السماء لا تفعلي .

ـ اذن ؟

ـ امهليني أتدبر الامر ، لعلي واجد مخرجا . . .

وعادت الى المتكا تستوي عليه ، اما انا فانتقدت حشية صغيرة على الارض بمقربة منها .

ـ الديك شراب يا حبيبي ؟ .

وسرعان ما كان الشراب .

وشرعنا نتساقاه على مهل .

ـ لابد ان اجد حلا يا « زهيرة » .

ـ وهل يعصى عليك ان تجده ؟

ـ نستطيع ان نتعاون معا . . نفكر . . نتبادل الرأي . . .

وامضينا الامسية في مسامرة بهجة وسمر انيس .

ولذت بمضجعي سكران اترنح واترنم .

وفي عد عدت الى داري ، بعد منتصف الليل بقليل ، وجلست الى مكتبي ، تشيع بين جوانحي غبطة وانشراح ، وتناولت الاوراق التي تم فيها تدبيج الفصل الختامي من قصة « زهيرة » ، وطفقت اروده بالملمسات الاخيرة ، وكنت كلما مضيت في القراءة داهمني شعور غامض فيه الم وحسرة .

راجعت ، وعاودت المراجعة ، والمرارة تزداد بي .

واستشطت غضبا ، فضربت المكتب بيدي ، وانا اجمجم لا ابين .

ثم جمعت الاوراق ، اوراق الفصل الختامي ، وانهلت عليها اشعلها تمزيقا .

وسمعت صوتها الشاجي :

بيد ان نجاتي من الموت محال .

ـ لقد جعل الريب فى كفايتى يتسرب الى نفسى !

ـ اذن لا امل ؟

ـ كل شىء يتهيأ بالمهارة .. فلماذا تحوشى مهارتى ؟

ـ فلنحاول كرة أخرى ...

واعدت أمامنا مائدة الشراب ، واقبلنا على مقادمة وسمر ، وبالقت شخصية « زهيرة » طلعة آسرة .

... وتوالى تذبيح الفصل الخامس من جديد .

وتوالت جلسات الأماسى ثائرة معربدة حول مائدة الشراب ، ويا لها من أماسى واصلنا فيها السهر حتى مطلع الفجر ، وما أشبهها بليالى « ألف ليلة وليلة » ، كنت فيها « شهريار » ، وكانت « زهيرة » « شهرزادى » تحاول بحديثها المأنوس أن تستخلص رقبتها من سيف الجلاد !

اما نهارى فكان كله هما وحقدا ، وشعورا بالخيبة والاخفاق ...

القصة بلا ختام .

الفصل الأخير مكانه شاغر .

أيظل كذلك الى الأبد ؟

أأكون قد وقعت فى براثن عاهرة تحسن الكيد وتجيد العبث بالرجال ؟

أعدوت فريسة لها ؟

ألدغ فى مربعها بين يديها ؟

وارتقبت فى ألم ما لأحسم معها الموقف الحائر المتميع ...

وما كاد المساء يرفعها الى ، حتى تدانيت منها فى رفق ، وجلست معها على المنكا ، وبعد سمعت قالت :

ما بالك كأنك تنطوى على سر ؟

فاجبتها ، وأنا مسرح النظر :

ـ أفضى اليك بذات نفسى يا « زهيرة » ...

أحبيبى .. مادا يخيفك من الموت ؟

فانتفضت تقول :

ـ محا لك ، الموت هو الموت ... انه الضياع الأكبر .

ـ ليس موتك ضياعا ... فالقصة الخالدة تخلد أبطالها معها .

ـ هل لك فى الشراب ؟

لهذا الخلود الذى تعرضه لها ؟

ـ كل شخصية تؤدى مهمتها فى الحياة الى نهايتها ، دون تكلف أو افتعال ، لها من الخلود نصيب ... فاذا لم تتخل عن مكانتها ، وقد انتهت مهمتها ، كان وجودها لغوا ، وليس اللغو من سمات الخالدين !

ـ ولكن ما انتفاعى بهذا الخلود ، وقد حرمنى الحياة ؟

ـ ان الخلود هو الحياة الحقة ...

ـ ولكنى لن أستشعر هذه الحياة الحقة التى تشيد بها ، فالموت هو الجمود المطبق ، والسكون المطلق ...

ـ لا جمود ولا سكون يا « زهيرة » الموت مجرد انتقال من حال الى حال .

فصاحت :

فلسفة عويصة يصعب على مثلى ادراكها ! ... فصارحنى ما أفهمه أن الموت ظلام ووحدة وبرد ! ... وما أنسى !

ـ هذا ما يصوره لك خيالك المحدود ، خيالك المرتبط بك باعتبارك كائنا بشريا على ظهر الأرض ... أما اذا ارهفت الحس ، وأذكيت البصيرة ، وسموت بالروح ، فسيتجلى لك أن الموت تطور فى الذات الانسانية ... فلا فناء ولا عدم

فصاحت :

كيف ؟ أكاد افقد رشدى !

ـ الرشد هو أن تؤمنى بأن العدم لا مفهوم له .. لا فى العقل والعلم ، ولا فى الفلسفة والدين !

ـ تحاول جهدك اقناعى بقبول الموت بصدر رحب ، لتستعد منك ، تريد أن تودى بى ، طوعا لما يتطلبه مجرى قصتك ..

فكنت رأسى ، ولم أجر جوابا .

وانقطعت لا تزورنى ليالى ، متوالية ، فعانيت قلقا ، وشاعت فى نفسى كآبة . وعندما عاودت زيارتى أقبلت عليها ملهوفا .

ـ افتقدتك يا « زهيرة » ...

ـ أحقا ؟ ... قالتها فى نبرة شجن ولوعة .

ـ هل لك فى الشراب ؟

ـ لن أشرب ..

وأردفت بها التجهم .

ـ مادا يشغلك ؟

ـ لا شىء ...

وخيم علينا صمت .

ثم سمعتها تخافت بصوتها :

ليكن لك ما تريد ... ليكن عنك مبرها عن الاشتعال .. لا غرض فيه ولا الزام .

ـ فلنمس الفن والاشتعال في مجلسنا الحاضر .. علينا ان نشهب الشمعة انتهائا .

ـ والفصل الختامي ؟

ـ ليظل مكانه شاغرا .. لن تموت يا « زهيرة » على أية حال !

ـ بل يجب أن تتم الرواية فصولا ، وان ذهبت حياتي فدية لتمامها ...

ـ اني واثق بكفاءتي ، ولن أعدو نحل بثقلك من الهلاك ..

وامتدت يده مائدة الشراب ، تحيي ليلتها الساهر .

لم يعد « زهيرة » تتعهدني بالزيارة بانتظام ، واختفت رورائها تقل حينا بعد حين ، واختفت في سهراتنا مائدة الشراب ، فكان الوقت يمر بينما جامدا ليس فيه الا الحسرات .

وتواصل اختفاؤها ، وانا ارقبها في تشوف ..

وكلما طال غيابها ، ازددت من حيرة وشتات فكر .

وفجأة احسست ثورة تهب من اعوار نفسي ، وتحملت لعيني تفاعيل ، وانا اشهد مكان الفصل الختامي من القصة شاغرا أبيض الصفحات .

كان انقاد « زهيرة » من الموت عقبة ليس الى تخطيها من سبيل .

ومرة بعد أن بلغ بي التفكير والتحير مبلغ الصمت والارهاق ، اتجهت الى الملا اطلب فيه غفوة استرخاء واسترواح ، واغمضت جفني .

وانبهني طلقه تدوي في الحجرة .

واذا انا امام مشهد ملأني رعبا

تراءى لي في سماء الحجرة لثار من سحاب ابيض ، وما اسرع ان تبينت صورة « زهيرة » وقد تمزقت اوصالها وتطايرت قطعة قطعة .

وتجلى لي وجهها ، وهو يعلو ويرق حسان مسلان ، ومحيا ممتلع وملامح ناطقة الأسى .

ووقفت وقتا مصعوقا امام ذلك الحطام المبعثر ، وهو يزايل شيئا فشيئا ، حتى لم يبق له أثر .

ورجعت الى مقعد مكتبي انهالك عليه ، وتعلقت عيني بالورقة الأخيرة للقصة ، وكانت قد تركتها بيضاء ، فاذا يد قد خطت فيها هذه السطور :

« تناولت « زهيرة » المسدس ، وتأملته مليا ، ثم ابتسمت ، وقد اكتست عيناها بالدموع .. لم يعد لها من مطمح في الوجود .. لقد عاشت حياة صاخبة مثيرة ، ولقد آن لها أن تستريح .. انها تموت منتحرة ! »

ولاح لي المسدس على مقربة ، وحملت اقلبه بين يدي ، وانا لا اتمالك من فرط ما عراني من اضطراب وانفعال ..

ماذا ؟

أأكون حقا امام حادثة انتحار ؟

أم انا امام حادثة قتل عن عمد ؟

وتركت المكتب ، فاصطدا المقعد الوثير ، والقيت بجسمي عليه ، وامنت رأسي الى ظهره .

وطفرت من عيني دمعة حارة .

ثم وجدتني وقد انطلقت من اعماق صدري تنهدة ارتياح !